

المراكز التجارية في الارض الاردنية وعلاقتها مع جيرانها قبيل الاسلام

بقلم

الدكتور صالح الحمارنه
قسم التاريخ - كلية الاداب
الجامعة الاردنية

ان المدن الشامية والمصرية ظلت تحافظ على نشاطها الاقتصادي بعد نشوء القسطنطينية حتى الفتح العربي الاسلامي، فالمصادر التاريخية والجغرافية المتنوعة والمعاصرة لتلك المرحلة تؤكد استمرار الازدهار الاقتصادي والعلمي والثقافي في مدن مصر وسوريا بشكل خاص. فكثرة العملة البيزنطية المكتشفة على طريق الحرير المؤدية الى الهند والصين تؤكد بدورها على نشاط التجارة البيزنطية الخارجية منذ نشوء بيزنطة حتى ظهور الاسلام. ونلاحظ ان المدن الشامية كان لها دور بارز في الصناعة والتجارة العالمية، ولكن هذه التجارة تعرضت للتقلص والانكماش في اواخر القرن السادس والقرن السابع بسبب الصراع البيزنطي الفارسي. فتناقصت بسبب ذلك مدن الحدود والحصون من (٣٠) في القرن الرابع الى اقل من عشرة في القرن السابع، وهذا بالطبع أضعف خط الدفاع ومكّن من ظهور نفوذ الزعماء المحليين بشكل اقوى مثل زعامة الغساسنة وجذام وما أن تم الفتح الاسلامي بعد ذلك وقامت الدولة العربية الاسلامية في المدينة ثم في دمشق حتى عادت التجارة العالمية من جديد الى النشاط وبشكل واسع وكبير.

هذه الحقائق الواضحة سقناها لربط الاحداث التي نحن بصدها والتي وقعت بالفترة قبيل الاسلام من حيث الزمن وجنوبي البلاد الشامية وشمالى الحجاز من حيث المكان. فالاجزاء الجنوبية من البلاد الشامية وفي ظل الدولة البيزنطية كانت لها زعامتها القبلية المحلية - يتبع التفصيل - حيث كان هؤلاء الزعماء يتمتعون بحرية ربما اكبر من حرية المدن، ففي البتراء ومنطقة عمان ومعان ودومة الجندل واية كانت القبائل تدبر امورها بنفسها. وثمة أمر بارز في صفة البلاد الشامية - ممتد منذ القدم - فقد قامت بها على الدوام مدن ذات كيانات مستقلة (المدن - الدولة) وظلت الشام بلدا فيه دول كثيرة مستقلة - بالغالب الاعم من تاريخها - ولا ترضى بالوحدة، فاما تعاونها معا أو اقتتالها فيما بينها، فطبيعتها الجغرافية كان من الاسباب، وثمة أمر تابع لذلك، فالبلاد الشامية بحكم موقعها وتضاريسها ومناخها من جهة وكثرة القادمين (بغض النظر عن الدوافع) اليها على مر العصور كانت دوما بلد التناقضات. فقد كان ثمة تحاسد

ليس الغرض من هذا البحث وصف الطرق التجارية وانواع البضائع وما يتعلق بذلك بقدر ما هو الحديث عن القبائل التي مارست التجارة ومرت الطرق التجارية بديارها ومساكنها. فكثيرا ما اغفلت الدراسات الحديثة هذا الجانب. وتعمل هذه الدراسة بالدرجة الاولى على المصادر الاولية لدى المؤرخين والجغرافيين العرب في الحضارة العربية الاسلامية.

وتبرز دور ثلاث من هذه القبائل هم: الانباط، جذام، وبنو كلب.. ذلك اولاً: لان دورهم كبير ومهم وثانياً يمكن اعتباره نموذجاً كلاسيكياً لبقية القبائل التي سكنت هذه المناطق. فهذه القبائل قد ساهمت مساهمة فعالة في الحياة الاقتصادية والتجارية والسياسية والدينية في المجتمع العربي/وعلى الارض الاردنية اليوم/ في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام.. واستمرت تلك الفعالية ولكن بلون جديد وروح جديدة بعد قيام الدولة العربية الاسلامية.

لست ارمي الى تكرار ما هو معروف عن تقسيمات البلاد الشامية في الفترة الرومانية - البيزنطية والتي سبقت العصر العربي الاسلامي فأمر ذلك معروف ومدروس، ولكنني احب هنا ان انوه ان مدار دراستي هذه هو حول الجزء الجنوبي من الديار الشامية والتي كانت في الفترة البيزنطية تقسم الى ثلاث فلسطينيات وعربية واحدة، هذه الاجزاء نفسها تقريبا، قد اجريت عليها تعديلات كثيرة في الفترة العربية الاسلامية اذ ان الادارة الاسلامية قد قسمتها الى جنديين او لنقل ولايتين. ويهمننا على التحديد الجزء الذي عُرف بالمقاطعة العربية والتي يحددها باركر ببحثه فيقول "المقاطعة التي تتكون من عدد من الحصون والمرايض، وقلاع المراقبة والتي ترتبط ببعضها بشبكة من الطرق وتنحدر باتجاه الجنوب من عاصمة المقاطعة بصرى - (في جنوب سوريا اليوم) حتى العقبة (اية قديما) مع امتداد الارض الاردنية حتى زراع البحر الاحمر بمسافة طولها (٣٦٠ كم) اي (٢٢٥) ميل. ولم تكن الارض في شرقي الاردن اكثر كثافة في السكان من فترة المقاطعة حتى العصر الحاضر" (١).

S.T. Parker, Archaeological Survey of the Limes Arabicus, (١)
Annual of the Dept. of Antiquities 1976 XXI, P. 19 Amman.

بين سكان الارض القاحلة والارض المزروعة.. وكان ثمة تناقض بين وجهات النظر في المدن وفي الريف - والبادية، وثمة اختلاف بين الساحل والداخل، فمدن الساحل وقراه منفتحة على البحر، وسكانها تتسع آفاقهم فتكثر خبرتهم وتزداد تجربتهم، أما سكان الداخل فأفاقهم اضيق وفيهم المحافظة بسبب قبوعهم في مدنهم وقراهم (٢).

بعد سقوط البتراء ١٠٦م شيدت الادارة الرومانية في حوران شبكة من الطرق وقد اهتم اباطرة روما منذ ذلك التاريخ اهتماما كبيرا بتنمية الحياة المدنية في الشرق الادنى وتشجيع مشاريع الاعمار وشق وتعبيد الطرق الامنة وكان اعظمها طريق تراجانوس الجديدة بين بصرى الشام والعقبة مارة بعدة مدن أهمها أم الجمال وجرش والكرك والطفيلة والبتراء (٣). وكذلك اصلح تراجانوس القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الاحمر واحكم بذلك احتكار الرومان للتجارة وثمة حصون أخرى أقيمت في فترات لاحقة لتراجانوس مثل الحصن في اللجون وفي أذرح الى المشرق من بتراء التي اقامها ديوقليتان في القرن الرابع الميلادي. فمن الدراسات السابقة نرى ان الاجزاء الجنوبية للبلاد الشامية تجتازها ثلاثة طرق من الشمال الى الجنوب وهذه الطرق هي: طريق دمشق - إيلة، طريق اللجون - البتراء، طريق قيسارية، هذه هي الطرق في الاراضي الشامية ولها امتداد في البلدان المجاورة الخارجية مثل اليمن، والحيرة (٤). واما الطريق الى الشمال من مكة فيتكون من مرحلتين اساسيتين: - الاولى: حجازية: تنتهي عند يثرب، التي تأتي بعد مكة من حيث الاهمية الاقتصادية في الحجاز. الثانية: فتمتد من يثرب الى بصرى - وفيها ايضا محطات تختلف في المسافات الفاصلة فيما بينها وهذه هي الطريق الهامة بالنسبة لبحثنا هذا.

وهناك طريق ثالث يصل مكة بالخليج العربي ويقطع اليمامة ويصل الى موانيء الخليج والبحرين وغيرها. قلنا ان الطريق الثانية هي الهامة بالنسبة لبحثنا ومن أهم مراكزها "دومة الجندل"، التي كانت تعتبر عقدة مواصلات المنطقة الشرقية حيث فيها تتلقى بضائع الهند والبلاد الشرقية. وكان يقوم بدومة الجندل سوق موسمية تعرض فيها منتوجات البلدان المختلفة المحلية والاجنبية ومن السلع المحلية المشهورة في سوق دومة الجندل: اللبان والمر والعقيق من اليمن. والعطور

والذهب والعاج وخشب الابنوس والرقيق من افريقية الشرقية والقمح في بعض الاحيان من مصر (٥).

وكما كانت دومة الجندل تعتبر عقدة المواصلات فان المنطقة وما حولها كانت تشتهر كذلك بالمراعي الخصب وتسمى الان بمنطقة الجوف ومن أبرز سكانها قبيل الاسلام وفي صدر الاسلام قبائل بني كلب التي قاومت المسلمين في معركة مؤتة، ولكن بعد ذلك بقليل اصبحت من اكبر مناصري الدولة العربية الاسلامية خاصة بني امية في الشام. وكانت مساكن بني كلب بجانب دومة الجندل في السماوة كلها وحول حمص وتدمر وفي المرزة والجولان والغوطة من اعمال دمشق فهي من اكبر القبائل العربية التي سكنت الارض الاردنية في صدر الاسلام وما تزال بطونهم تسكن الاردن وفلسطين حتى اليوم. مثل الرولة، والشرارات، والرفيدات (٦).

وفي المصادر العربية وصف طريق لسوق دومة الجندل الذي كان يعقد حولياً في شهر ربيع الاول ويستمر في البيع والشراء والاخذ والعطاء مما يتصل بالناحية التجارية بل تعداها الى فكك الاسرى ودفع الديات والاصلاح بين القبائل وغير ذلك من الامور العامة يقول ياقوت "تقع سوق دومة الجندل في منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريبا.. وفيها حصن "مارد" المشهور والى غربها عين تتجق فتسقى ما به من النخيل والزرع." سميت دومة الجندل لان حصنها مبني بالجندل وكان بهذا الحصن بنوكنانة من كلب (٧).

وتتحدث المصادر كذلك عن ان قبيلة كلب، اصحاب هذه المنطقة كانت اكثر العرب قناً وابلهم من اسرع انواع الابل. وكانت نساء كلب يتعاطين التجارة، مثل بعض نساء العرب في مكة وغيرها وكثيرا ما كان رجال يقومون في تسيير امور تجارتهن. فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت من شعر يجعلون فيها عبيدهم واماءهم وكانوا - على عادة بعض العرب في الجاهلية يكرهون فيها فتياتهم - اماءهم على البغاء ويأخذون لانفسهم كسب أولئك البغايا من امائهم - فلما كان الاسلام حرم الله هذه العادة.. "ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً." هذا وقد كانت المواخير موجودة في القرى والمدن وعلى طرق التجارة حيث يأوى التجار وأصحاب الاسفار للراحة. فيجدون أمامهم

(٢) نقولا زيادة - التطور الاداري لبلاد الشام بيننطه والعرب - بحث قدم

لمؤتمر بلاد الشام الرابع عام ١٩٨٢ ص ٢٠ - عمان

(٣) عدنان الحديدي -

المسارح الرومانية في الشرق الادنى - مجلة دراسات المجلد ١ كانون الاول ١٩٨٤. العدد ١، ٢ ص ٣١ عمان.

صالح العلي - محاضرات في تاريخ العرب. ص ٤٢ بغداد.

(٤) اليعقوبي - البلدان (الطبعة الاوروبية) ص ٣١٧.

ابن خرداذبه - المسالك والممالك (الطبعة الاوروبية) ص ١٣٤-١٣٦.

م. كستر - الحيرة، ومكة ترجمة يحي الجبوري بغداد ١٩٧٦ ص ٤٠.

(٥) Nigel Groom, Frankincense and Myrrh, Longman, London 1981, p. 192.

(٦) ياقوت الحموي - معجم البلدان، انظر "دومة الجندل"، دار المعارف الاسلامية - بيروت ١٩٧٩.

حمد الجاسر - في شمال غربي الجزيرة، دار اليمامة - الرياض ص ٤٤، وما بعدها ١٥١ وما بعدها.

(٧) ياقوت الحموي - معجم مادة دومة الجندل.

تلك المواخير، وتذكر المصادر ان بعض تلك البغايا يضرب عليهن القباب ولهن رايات (٨).

وجاء في المحبر "وكان ملكها (دومة الجندل) بين اكيدر العبادي ثم السكوني وبين قنافة الكلبى. فكان العباديون اذا غلبوا وليها اكيدر. واذا غلب الغسانيون ولوها قنافة.. فأيما ملك.. لم يبيع بها أحد شيئاً الا بأذنه.. مع ما يتصل اليه من عشورها.. وكانت مبايعة العرب فيها بالقاء الحجارة.. وذلك انه ربما اجتمع على السلعة النفر يسامون بها صاحبها فأيهم رضى القى حجرة..". هذا وكثير من تجار مكة قد تعلم من اهل دومة الكتابة قبيل الاسلام. ومما يدل على نشاط بني كلب التجاري ما يذكره ابن عساكر في حديثه على لسان الصحابي سلمان الفارسي فيقول "فأقمت (بأرض عمورية) حتى مر بي رجال من تجار العرب من كلب فقلت لهم: تحملوني معكم حتى تقدموا بي أرض العرب.. قالوا نعم.. وحملوني حتى جاءوا بي وادي القرى.. فباعوني عبداً..". ويذكر ابن قتيبة ان كلب ابتاعت من الروم صهييا (رضى) ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان. وهذا يؤيد الرأي القائل ان فروعا من بني كلب قد وصلت فيما بعد الى خليج القسطنطينية (٩).

وتذكر المصادر ان صلحا تجاريا تم ما بين الرسول واهل دومة الجندل في السنة الخامسة للهجرة.. اما فتحها فتم في السنة الثانية عشر للهجرة في خلافة ابي بكر الصديق. ويرد خطأ انه في دومة الجندل وقع التحكيم بين عمرو بن العاصي وأبي موسى الاشعري في خلافة علي بن ابي طالب حيث ان هذا التحكيم قد تم في موقع أذرح، ويبرز ياقوت ان سبب اختيار أذرح مكانا للتحكيم هو قربها من زعماء المدينة الذين دعاهم معاوية. ويصف ياقوت في معجمه بلدة أذرح فيقول: "انها محلة رومانية بها نبع تفيض مياهه وتنساب في شقوق الارض - في اطراف الشام من أعمال الشراة، وقد وصلت القوافل القريشية الى هذا المكان الواقع في اقليم جذام - وكان بها يوم خضعت للرسول مائة اسرة على أقل تقدير وصولح أهل أذرح على مائة دينار جزية" (١٠).

(٨) القرآن الكريم - سورة النور ٢٤ - ٢٣.

اليقوي - تاريخ ج ١، ص ١٨٠.
ناصر الدين الاسد - القيان والغناء في العصر الجاهلي، دار المعارف - مصر ص ٤٠، وما بعدها.

واضح العمد - الصناعات والحرف عند العرب في الجاهلية، بيروت ١٩٨١ ص ٣٢٨، وما بعدها.

(٩) ابن قتيبة - المعارف، ص ٦١. دار المعارف - القاهرة.

ابن عساكر التهذيب - تحقيق بدران، ج ٦، ص ١٩٢، دمشق ١٩٧٩م.
سعيد الافغاني - اسواق العرب، بيروت ١٩٧٤ ص ١١٤.

ابن حبيب - المحبر، تحقيق ايلزا شتيرتير ص ٢٦٣ وما بعدها، بيروت.

(١٠) ياقوت الحموي - نفس المصدر، ج ١، ص ١٢٩.

ويذكر الافغاني ان اسواق العرب في الجاهلية تقسم الى ثلاثة اقسام:-

(١) اسواق خاضعة لنفوذ خارجي تدار بنظم خاصة.

(٢) أسواق أنشأها العرب أنفسهم... فصارت مع الزمن تمثلهم اصدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والخصام والدين والزواج والحقوق.. ولا يشرف عليها الا سراة أهلها. وبرز مثال سوق عكاظ الشهير.

(٣) اسواق ذات صبغة مختلطة نظرا لموقعها الجغرافي: وهي تكون على ساحل البحر كعدن وصحار ودبي. وفي هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس ويضلل فيها الطابع القومي. ومن طريف ما يذكره اليقوي عن حماية الاسواق "وكان في العرب قوم يستحلون المظالم اذا حضروا هذه الاسواق فسموا المحلون وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم فيسمون الذاده فاما المحلون وكانوا في قبائل أسد وطىء، واما الذاده فكانوا من شيبان ومن بنى كلب بن وبرة وغيرهم وكانوا هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس وكان العرب يضعون اسلحتهم في الاشهر الحرم (١١).

الانباط والتجارة: قد يبدو لكثيرين ان دور الانباط في الفترة التي سبقت الاسلام مباشرة قد انتهى ولكن المتعمن يرى ان بعض الدور بقى لهم حتى بعد ظهور الاسلام. فالانباط بعد سقوط دولتهم على يد ترجانوس في مطلع القرن الثاني الميلادي لم يختفوا مع زوال سلطانهم السياسي الكبير عن خريطة الاحداث، فمن صفوفهم خرج عدد من المسيحيين الاوائل حتى انه في القرن الثالث ومطلع القرن الرابع للميلاد. اصبحت البتراء مركزا لأسقفية واشتركت في كثير من المجامع المسيحية كما ان كثيرا من كتابات الانباط ونقوشهم التي وجدت منتشرة في ارض سيناء ومصر وفي أم الجمال وفي موطنهم الاول البتراء ومدائن صالح لا تتعدى في تاريخها - حسب معرفتي - القرن الرابع ميلادي (١٢). فاستمر الانباط بعد زوال سلطانهم السياسي بمزاولة أعمال التجارة والزراعة والرعي وتشير بوضوح لذلك المصادر العربية الاسلامية، فيذكر الواقدي ان الانباط التجار كانوا يترددون على سوق دومة الجندل وكانت لهم سوق في يثرب (المدينة) فجاء في

(١١) سعيد الافغاني - نفس المصدر، ص ٢١٢-٢١٣.

اليقوي - تاريخ، ج ١، ص ٢١٥ (طبعة ليدن ١٩٦٤).

(١٢) J.S. Trimmingham, Christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times - London - 1979 P. 105.

S. Hamarneh, The Role of the Nabateans in the Islamic Conquests. P. 347.

Studies in the History and Archaeology of Jordan I, Amman Department of Antiquities. 1982

وقبل ذلك كانت ايلة بيد البطالسة الذين اتخذوا منها ميناء لنقل تجارة فلسطين الى موانئ البحر الاحمر وافريقية، كما كان ميناؤها يستقبل السفن القادمة من افريقية والمحيط الهندي. ولقد قام نزاع كبير ما بين الانباط والبطالسة حول ميناء ايلة للسيطرة عليه ولكننا هنا نركز على دور ايلة قبيل الاسلام. ففي القرن الرابع الميلادي من الفترة البيزنطية اصبحت مدينة ايلة مركزا لمطرانية وكانت على صلة وتداخل مع القبائل المحيطة بها - التي بدورها اصبحت نصرانية - والمهم ان الحضر والبدو من سكان هذه النواحي قبيل الاسلام كانوا يتطلعون ويتأثرون ويحتذون بالمراكز الكبرى في دمشق وانطاكية وبصرى وغيرها، فسياسياً ارتبطوا مع السلطة البيزنطية ولكن مذهبياً كانوا مع حركات الطبيعة الواحدة اي مع الكنسية السورية اتباع يعقوب البرادعي السوري وقد كثرت الصوامع وانتشرت ما بين ايلة ودومة خاصة في بلدة كيلوة. (١٧)

وتصف المصادر العربية الاسلامية أن ايلة هي آخر الشام وأول الحجاز، تجتمع فيها الحجاج، وذكر الجغرافيون العرب انه فيها "زروعا وتجارة وسمكا"، ووصفها المقدسي فقال: "مدينة على طرف شعبة البحر عامرة جلييلة وهي فرض فلسطين وخزانة الحجاز" (١٨).

ومن اشهر القبائل واكثرها التي استوطنت ايلة قبائل جذام فأبن خلدون يقول "ونزلت جذام من حدود ايلة الى ينبع محاذية للساحل". (١٩)

فجذام قبيل الاسلام كانت تنزل المناطق ما بين الحجاز والشام ومصر وكانت جموعها المتعددة منتشرة على مساحة شاسعة من ارض العرب تمتد من الحدود الشمالية لوادي القرى في المساحة من تبوك في الحجاز بامتداد الشمال الشرقي من وادي العربية حتى البحر الميت الى البلقاء حول عمان في الارض الاردنية ثم الى الجنوب الغربي الى غزة جنوب فلسطين. وجذام اكثر العرب إبلا وبالقرب من تبوك يرتفع جبل حسمى الذي يعتبر جبل جذام - ومنطقة حسمى تقع في الاردن اليوم في الجنوب من مدينة معان من رأس النقب الى الجنوب حيث موقع القويرة وما جاورها - وكانت لجذام رئاسة في معان وما حولها من أرض الشام وان بطن بني النافرة من جذام تعاون مع الرومان الذين عينوا

المغازي عند ذكر غزوة تبوك "كانت الساقطة - وهم الانباط - يقدمون المدينة بالدرمك (الدقيق) والزيت في الجاهلية وبعد ان دخل الاسلام. فانما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط. (١٣) والذي نستنتجه من هذه الفقرات هو ان الانباط بقوا على صلتهم التجارية مع يثرب (المدينة) وان هذه الصلة استمرت كذلك عند مجيء الاسلام. ويظهر لنا ان الانباط أخذوا يلاقون الصعوبات والشدائد والمضايقات نتيجة لاستمرار علاقتهم هذه مع المدينة وعرب الحجاز. فيذكر الواقدي ايضا انه بدومة الجندل "كان الانباط (التجار) يظلمون وانهم (حكام دومة الجندل) يظلمون من مّر بهم من الضافطة وكان بها (دومة الجندل) سوق عظيم وتجار. وضوى اليهم قوم من العرب كثير وهم يريدون أن يدنوا المدينة" (والضافطة هنا جمع ضافط وهو الذي يجلب الميرة والمتاع الى المدن والمكاري الذي يكري الاحمال) وكانوا يومئذ قوما من الانباط يحملون الى المدينة الدقيق والزيت. (١٤)

فمن هنا نرى ان الانباط كسابق عهدهم يريدون ان يواصلوا تجارتهم مع المدينة في ظل الاسلام - هذه المرة - ولكن يظهر ان هذا لم يرق للبيزنطيين، فأوعزوا الى حاكم دومة الجندل ان يضايقهم. ويؤكد هذه الفرضية ما جاء عند المسعودي في كتابة التنبيه والاشراف فيذكر: "وكان صاحبها (دومة الجندل) اكيدر بن عبد الله الكندي يدين بالنصرانية، وهو في طاعة هرقل ملك الروم. وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم." (١٥) ولا شك ان من بين سفر المدينة كان الانباط الذين كانت لهم سوق بالمدينة. ويؤكد ذلك ابن سعد في كتابه "الطبقات الكبرى" فيذكر عند حديثه عن هاشم بن مناف جد الرسول الكريم "ان هاشما كان يمر على سوق للانباط تقام في يثرب فخرج هاشم في غير لقريش فيها تجارات وكان طريقهم على المدينة فنزلوا بسوق النبط فصادفوا سوقا تقوم بها في السنة يحشدون لها فباعوا واشتروا." (١٦)

وحتى تكتمل صورة هذه الطرق التجارية البرية - والتي كانت في نفس الوقت طرقا للحج - علينا ان نشير الى الطريق البحري الهام على البحر الاحمر والذي يقع عليه ميناء العقبة الاردني - ايلة.

فأيلة كانت ميناء الانباط - بجانب لوكي كومي حيث منه كانت تنقل المتاجر الى بتراء، وقد كانت هذه الطريق تغص بالمسافرين والقوافل الكثيفة.

(١٨) المقدسي - احسن التقاسيم، ص ١٧٨ - ١٧٩.

الهمداني - صفة جزيرة العرب، ص ١٢٩.

(١٩) ابن خلدون - كتاب العبر ج ٣، ص ٣٧. طبعة الكتاب اللبناني - بيروت.

القلقشندي - نهاية الأرب القاهرة ١٩٥٩، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(١٣) الواقدي - المغازي، ج ٣، ص ٩٨٩. تحقيق جونس.

(١٤) ابن كثير - البداية للنهاية - القاهرة ١٩٣٢ ص ٢٢-٢٣.

الواقدي - نفس المصدر، ج ٣، ص ٩٨٩.

(١٥) المسعودي - التنبيه والاشراق - مكتبة الخياط بيروت ١٩٦٣، ص ٢٤٨.

(١٦) ابن سعد - الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٧٨ بيروت ١٩٥٧.

فروة بن عمرو عاملا لهم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب. (٢٠)

ولقد انتقلت الرئاسة في هذا الوقت الى فروة الجذامي ذلك ان الفرس الساسانيين قد ابادوا في جملة ما ابادوا ملك غسان، في حربهم مع البيزنطيين واحتلالهم الاراضي الشامية عام ٦١١م، وبعد انتصار هرقل اميراطور بيزنطة عليهم ٦٢٩م لم تتعد سيطرة الروم البحر الميت في حين كانت في السابق حتى ايلة ولسد هذا الفراغ جاء البيزنطيون بجذام وقلدها الرئاسة بشخص فروة الجذامي في معان وما جاورها. وتقول المصادر العربية كذلك ان فروة هذا قد أسلم وتبادل الهدايا مع الرسول ثم انه صلب على ماء عفرى قرب الطفيلة. (٢١) وأريد ان اذهب مستطرداً فأقول ان جذام وهي بطون كثيرة أو بالاصح بطن متسع له شعوب كثيرة سكنت نفس المواقع تقريبا - مع اختلافات بسيطة - التي سكنها من قبل المديانيون، والأدوميون ثم الانباط ومن جاء بعدهم أهل ثمود، فازعم ان هذه الشعوب شعوب أرومية قد ذابت بعضها ببعض واندمجت وظهرت لنا بالتالي باسم جذام وقد هيمن هذا الاسم الذي حملته قبائل عربية خرجت من شبه الجزيرة (وعلى فترات) أبرزها في القرن الرابع الميلادي. فالشعوب السابقة التي ذكرناها أمدتها القبائل العربية اللاحقة التي نزلت ارض الشام بقوى بشرية غدت الارض الشامية بدماء جديدة فزادت في الكثافة السكانية وزادت بالتالي من ازدهار المنطقة وفعاليتها، هذا ولم يخلف وجودها اي اضطراب ذي شأن اذ في حقيقة الامر، انما هي نزلت في ارض الشعوب العروبية «السامية» القديمة التي سبقتها والتي خلقت حضارات هذه المنطقة على مدى الاف السنين خدمت بها الانسان وقضية تقدمه منذ نشأة الحضارات. اذن فهذه القبائل والشعوب قد تداخلت (السكان السابقون مع اللاحقين) تداخلا واسعا وسهلا (هرمونيا) بسبب الارومة الواحدة من جهة ومن جهة أخرى فان الديار الشامية نفسها زادت باستيعابها لها قوة وفعالية ناهيك عن وحدة الحضارة في الاساس مما حفظ للجميع البقاء والاستمرار امام العناصر الخارجية ونخلص مما سبق الى القول: ان ايلة مدينة تجارية هامة غالب سكانها من جذام حيث ان هذه القبائل كانت تنزل وسط الطرق التجارية ومسالك القوافل والحجاج ما بين مصر والشام والحجاز، فكانت القوافل حين تمر بديارهم يتولى رجالها حراستها وجباية المكس من التجار الذين يجتازونها وكان عمرين الخطاب نفسه (في الجاهلية) احد الذين دفعوا العشر لزعيم جذام

زنباع بن روح (في طريقه بديارهم تاجرا) (في جملة من التجار القرشيين). (٢٢)

و حين أصبح الرسول مسيطرا على الجزيرة العربية بكاملها تقريبا وامتد نفوذ المسلمين على أهم الطرق التجارية ومنها الطريق البرية المؤدية الى ايلة من اليمن وجنوب بلاد العرب وذلك حوالي عام ٦٣١هـ/٦٣١م المعروف بعام الوفود - اشارة الى تقبل جموع القبائل للإسلام وبالتالي الى خضوع الجزيرة العربية للرسول - عندها رأى صاحب ايلة من الصواب ان تسارع الى الصلح مع الرسول خوفا على تجارتهم فقبل اسقف ايلة يحنه بن رؤبه ان يدفع الجزية وعقد صلحا مع الرسول وتبادل معه الهدايا ويؤكد ذلك الاتجاه وبشكل أوسع الواقدي حيث يقول "ان دومة الجندل وايلة وتيماء قد خافوا النبي (ص) لما رأوا العرب قد اسلمت اليه". ويذهب بعض المؤرخين الى القول ان يحنه بن رؤبه اسقف ايلة هو نفسه من جذام. ناهيك ان كثيرا من اساقفة ايلة قبله كانوا من أصل عربي. (٢٣)

الاحلاف ودلائلها التجارية:

وفي النهاية أجد من الضرورة التعرض لقضية الاحلاف والعلاقات الثنائية (ولو بشكل يسير بسيط) ما بين القبائل المختلفة النازلة عند المراكز التجارية، لما في ذلك من اثر بعيد في العملية التجارية.

فعلى امتداد الطريق وتفرعاتها ما بين يثرب - المدينة - حتى بصرى. تذكر المصادر منازل القبائل المتداخلة المهمة التالية مزينة، جهينة، طي، جذام، غطفان، عذرة، كلب، عاملة، بلي، لخم، عدوان وغسان، وغيرها.

لقد عرف سكان هذه المنطقة (شمال الحجاز وجنوب الاردن) قبل الميلاد سرجا معيننا عرف بسرج الجمل (لشمالى جزيرة العرب) وان اختراع هذا السرج قد مكن البدوي من اكتساب مهارة قتالية خلقت له بالتالي ظروفًا اقتصادية واجتماعية أفضل وذلك لاستعمال راكب مثل هذا السرج ليديه بحرية ولسرعة الحركة، الامر الذي ساعده اكثر بالاحتكاك بالحواضر فساعد على تقدمه الاجتماعي، حتى ان ريتشارد بوليه يقرن هذا النوع من السروج بظهور العرب فيسمى فصلاً من كتابه القيم "الجمل والعجل" السرج في شمالي الجزيرة العربية وظهور العرب. (٢٤)

(٢٢) الطيبي - المناقب المزدية - تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات عمان ١٩٨٤، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨.

(٢٣) الواقدي - نفس المصدر ج ٢، ص ١٠٢١.

ابن سعد - نفس المصدر ج ١، ص ٢٨٢ بيروت دار صادر ١٩٥٧. لويس شيجو - النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ج ٢، ص ٤٤٨ بيروت ١٩٢٣.

(٢٤) Richard W Bulliet, The Camel and the Wheel, Harvard University - Cambridge 1975, P. 87

(٢٠) ابن خلدون - العبر ج ٢، ص ٣٧ (بيروت الكتاب اللبناني).

الواقدي - نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٥٥ - ٧٦٩.

الطيبي - تاريخ. تحقيق ابو الفضل، ج ٢، ص ٣٦ - ٤٢.

(٢١) العسكري - الاوائل. دمشق ١٩٧٥، ج ١، ص ١٦٩ - ١٧١.

والصيف" والايلاف باختصار شديد هو ان يأمن التجار على قوافلهم، فكان المقيم رابحا والمسافر محفوظا خوفا من الهجوم على الركبان كما كان شائعا قبيل الاسلام فكان العرب يتلقون الركبان ويشترون منهم الطعام (لاحتكاره) ثم يبيعه بسعر عال للفقراء والبدو وجاء في صحيح البخاري "لا تلقوا الركبان... ولا يبيع بعضكم على بعض ولا يبيع حاضر لباد." (٢٧) ولقد ادى الايلاف الى تقوية الصلات التجارية ما بين مكة وبلاد الشام - وخصوصا على الطرق المؤدية من مكة حتى بصرى وبعض موانئ البحر الابيض المتوسط الشامية مثل غزة في الجنوب وصور في الشمال، فكانت مراكز التجارة ترسو في ميناء الجار (قرب ينبع) حاملة الطعام من مصر الى الحجاز، وقد اطلق المقدسي على هذا الميناء اسم "خزانة مصر" ناهيك عن المراكز التجارية الاخرى للمكيين في كل من بصرى، واذرعات والبلقاء. فلا غرابة ان أطلق على قريش "قريش التجار" فكان التجار يجلبون من الشام لمكة زيت الزيتون والقمح - من حوران والبلقاء - والخمور والجواري والمواد المصنعة كالاسلحة والمنسوجات. (٢٨) وبتصور ان هذه التجارة قد يسرت لزعماء مكة المعرفة الدقيقة للأوضاع السائدة في بلاد الشام (خاصة جنوبها) وقوت صلاتهم وروابطهم باهلها وزعمائها خاصة هؤلاء التجار الذين خرج من صفوفهم الصحابة الاولون قواد جيش الفتح الاسلامي الميامين.

ولقد اتبعت القبائل المتعددة اساليب مختلفة لتسيير امور تجارتها وتبادلاتها.. حتى لا تستسلم كل الوقت للخصومة والغزو.. فكانت تلجأ الى الاحلاف بعضها مع بعض، وكذلك اشتركت في تعظيم اصنام مشتركة بينها واتفقت على اوقات أو أشهر حرم فيها القتال، كان الناس فيها يخرجون الى اسواق معينة للاتجار والمقاضاة ولسماع الشعر والخطابة.. وابرز هذه الاحلاف المشتركة والمهمة لبحثنا هي ما عقدهت مع عدة اطراف - وبشكل مباشر وغير مباشر - قبيلة بني كلب. فكان لها حلف شهير مع تميم، وتميم مع أسد ثم مع طي وتحالفت كلب مع قبائل قضاعية كثيرة منها عاملة التي كانت مساكنها في المناطق الشرقية للبحر الميت (قبل ان تنتقل جموعها الى جبال الجليل الشمالية ويعطوها اسمهم حتى اليوم) وطبيعي ان هذا كله قد سهل امر التجارة مع المدن الواقعة ضمن هذه المناطق مثل معان والطفيلة وأم الجمال حتى بصرى الشام.

ومن الجانب الاخر فقد كان لقبيلة قريش في مكة مبادرة فذة في الاحلاف، من اجل تأمين تجارتها وتأمين الحج اليها. وكان أسبق هذه الاحلاف الحمس وان المبدأ الاساسي الذي كان يقوم عليه هو عدم انتهاك منطقة الحرام وحياد واستقلال قريش - لتسهيل شؤونها التجارية - اما القبائل التي قبلت نظام الحمس فكانت من أصول قبلية مختلفة: كناية، وقضاعة (بفروعها المتعددة منها جذام، ولخم، وكنب) هذا بالنسبة للقبائل على الارض الشامية، ويربوع ومازن - على طريق الحيرة وفارس - وهكذا نرى ان السلسلة قد اتصلت والتحمت. (٢٥)

وعلى أساس الحمس أو بالحري بالاستفادة من تجربة الحمس، قام الايلاف والايلاف هو ابتكار قرشي، بادر اليه هاشم بن عبد مناف - واخوته - ولقد هيا الايلاف لمكة القوة والمكانة التجارية في الفترة التي سبقت الاسلام.

ولقد استفادت مكة من العلاقات العدوانية بين الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين - او لنقل استغللت فرصة هذه العلاقة السيئة بين هاتين الدولتين - فنهجت منهاج حيادها في تعاملها مع العسكريين الامر الذي مكّنها من الاتجار مع الشام من جهة ومع العراق واليمن من جهة أخرى بل لقد امتد نفوذ الايلاف بالتعهدات التي قطعت بسببه الى مصر، حيث تذكر المصادر العربية أن ابناء عبد مناف اخذوا العهود من حكام مصر... بل ان تجارتهم بلغت حتى انقره. (٢٦)

ونتيجة معروفة لهذا الايلاف فلقد نظمت الرحلتان رحلة الصيف ورحلة الشتاء "لأيلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء

(٢٧) البخاري - صحيح البخاري كتاب البيوع - ٢٧ طبعة ليدن ٢٤.

(٢٨) اليعقوبي - البلدان - ص ٧٥ تاريخ، ح ١، ص ٢٨٠.

المقدسي - احسن التقاسيم، (المطبعة الاوربية) ص ٩٧.

(٢٥) ابن حبيب - نفس المصدر ص ١٧٨ - ١٧٩.

كستر - نفس المصدر ص ٦٢ - ٦٥.

(٢٦) ابن سعد - الطبقات ج ١: ص ٧٥.

